بدايات الحرب الباردة

"بينما تشبث البريطانيون والأمريكيون، بمنتهي الحزم والصرامة، بوجودهم في كل من أفريقيا والبحر المتوسط وفي كل ألمانيا الغربية.. أخذوا علي عاتقهم - عن طريق المفاوضات والضغوط الدبلوماسية - مهمة تخفيض حجم الوجود الروسي في أوروبا الشرقية التي اكتسبها الاتحاد السوفيتي، بعد نجاح الجيش الأحمر في هزيمة ثلثي الجيش الألماني"

(والترليبمان)

لا يوجد تاريخ محدد لبداية الحرب الباردة، ولكن قضية أوروبا الشرقية هي التي تسببت في ظهورها، وشكلت مسارها في البداية. لقد تصارع الشرق والغرب لعدة قرون للسيطرة على المساحة الضخمة الممتدة من البلطيق حتى البلقان، وهي منطقة غنية بمواردها البشرية والصناعية، بالإضافة إلى كونها منطقة حيوية استراتيجياً للطرفين، فهي بالنسبة لروسيا تصلح كحاجز ضد الغرب، وبالنسبة لألمانيا وفرنسا تصلح كمدخل لغزو روسيا. ولم يسمح كلا الطرفين: الغرب والشرق لأوروبا الشرقية بأن تصبح قوية أو مستقلة، أو محايدة، وأرادت كل من روسيا والغرب أن تتحالف تلك المنطقة معهما. ولقد شاركت الولايات المتحدة في هذه العملية في ١٩١٩.

عندما أخذ الرئيس الأمريكى «وودرو ويلسون» زمام المبادرة لتحطيم الامبراطورية النمسوية المجرية، وتأسيس حكومات مستقلة مؤيدة للغرب؛ بحيث يمكن الحد من التحرك السوفيتى. إلا أن المحاولة فشلت فى النهاية نظراً لعدم قدرة الدول الرأسمالية على مساندة بعضها البعض، وقد ساعد على ذلك الفشل رفض أمريكا القيام بأى دور فى السياسة الأوروبية فى الثلاثينيات.

وصلت الأوضاع إلى الذروة فى مؤتمر ميونخ سنة ١٩٣٩، وكان «ستالين» قد سعى لمدة ٣ سنوات إلى الدخول فى تحالف مع بريطانيا وفرنسا، ولكن الدول الديمقراطية لم تكن مستعدة على الإطلاق للتعاون مع السوفيت، أو مشاركتهم فى أى شئ مما اضطرهم إلى التعاون مع النازيين. ومن هنا لجأ «ستالين» (الذى لم يكن مستعدا ـ مثله مثل الغرب ـ لمواجهة هتلر بمفرده) إلى توقيع الميثاق النازى السوفيتى فى ١٩٣٩، الذى نص على تقسيم أوروبا الشرقية بين ألمانيا وروسيا، إلا أنهما سرعان ما تصارعا على الغنائم. وفى ١٩٤١، استحوذ هتلر على كل أوروبا الشرقية، ثم توغل داخل الأراضى السوفيتية. وفى هذه الأثناء، حاولت بريطانيا وفرنسا تعويض تخليهما عن أوروبا الشرقية، بإعلان الحرب عندما قام هتلر بغزو بولندا، ولكن المساعدة التى قدماها للدفاع عن بولندا لم يكن لها جدوى. وأثناء الصراع الذى تلا ذلك لم يقدم الغرب أية مساهمة ذات قيمة للمساعدة فى تحرير أوروبا الشرقية. وعندما حانت النهاية، كان الجيش الأحمر قد استحوذ ـ بمفرده ـ على المنطقة الواقعة شرق الخط الممتد من «ستيتين» على بحر البلطيق إلى «تريستا» على البحر الأدرياتيكى.

لقد احتلت روسيا أوروبا الشرقية، وترتب على هذه النتيجة الحاسمة للحرب العالمية الثانية القضاء على التحالف الكبير، واندلاع الحرب الباردة.

لم يكن لدى الولايات المتحدة أى استعداد لقبول سيطرة روسيا على أوروبا الشرقية، على الرغم من اعتراف الأمريكيين بأن أمن روسيا يتطلب وجود حكومات صديقة لها فى تلك المنطقة. ولقد أقرّ كل الزعماء الأمريكيين المهمين ـ تقريباً ـ

باستحالة الإبقاء على موقف معاد للسوفييت فى أوروبا الشرقية، ولكنهم فى نفس الوقت أرادوا نشر الديمقراطية وحرية الدين، وحرية التعبير، والمؤسسات الحرة. ولقد عبر وزير الخارجية «جيمس بيرنز» آنذاك خير تعبير، قائلاً: «إن هدفنا فى بولندا هو إقامة حكومة صديقة للاتحاد السوفيتى وفى نفس الوقت تمثل كل العناصر الديمقراطية بالبلاد».

كان ذلك برنامجا مستحيلاً، فإذا أخذنا فى الاعبار التقاليد السائدة، والأحقاد والهيكل الاجتماعى لأوروبا الشرقية فإن أية حكومة منتخبة (انتخابات حرة) لابد أن تكون معادية لروسيا؛ وربما أدرك «روزفلت» تلك الحقيقة، ولكنه لـم يشأ أن يشرحها للشعب الأمريكى. وعندما قدم تقريره عن مؤتمر «يالتا» فى فبراير ١٩٤٥، اكّـد على موافقة «ستالين» على إجراء انتخابات حرة؛ مما زاد من توقعات الأمريكيين المتزايدة حول الشكل الذى ستكون عليه أوروبا الشرقية بعد الحرب. وكان من المعتقد أن تصبح بولندا و بلغاريا ورومانيا وبقية المنطقة دولاً رأسمالية ديمقراطية تربطها بالغرب صلات وثيقة، إلا أنه لم يوجد أى مؤشر يدل على احتمال حدوث ذلك. وعندما لم يتحقق ذلك شعر ملايين الأمريكيين بالغضب الشديد، وطالبوا بالتحرير والانسحاب السوفيتى، ووجهوا الإهانات للروس، بينما عمل السياسيون المحترفون المعادون للشيوعية على البحث عن الذين خانوا أوروبا الشرقية، واعتقدوا أنهم وجدوهم فى أعلى دوائر الحكومة الأمريكية، بما فى ذلك الرئيس «روزفلت»، كما اعتقد بعضهم.

لقد تركز الصراع حول بولندا، وكانت هناك قضيتان منفصلتان رغم الصلة بينهما: من الذى سيحكم بولندا؟ وما هى الحدود البولندية؟ لقدحاول البريطانيون الإجابة عن السؤال الأول من خلال تأييد قيام حكومة بولندية فى المنفى فى لندن، يتولاها بعض رجال الكنيسة والجيش البولندى وكبار ملاك الأراضى الزراعية. وأجاب الأمريكيون عن السؤال الثانى عندما رفضت الولايات المتحدة فى بداية ١٩٤٢ بحث موضوع الحدود فى أوروبا الشرقية، كما كان يريد ستالين. وأصر الأمريكيون على

ضرورة تأجيل مثل تلك المناقشة إلى ما بعد سحق «هتلر». ويرجع ذلك جزئيا إلى أن «روزفلت» لم يكن راغبا فى الدخول فى اتفاقيات سرية يمكن إدانتها فيما بعد، ولكن رفض روزفلت كان أساساً لأن «ستالين» كان يطالب بحدود روسيا فى سنة ١٩٤١، التى شملت امتداد النفوذ السوفيتى فى أوروبا الشرقية وفقا للميثاق النازى السوفيتى.

وحيث إن الرغبة العامة فى «يالتا» كانت تدعو إلى الحفاظ على التحالف العظيم من أجل المحافظة على المصالح المتبادلة، فقد حاول الثلاثة الكبار إيجاد معادلة تنقذ ماء وجوههم، فاختلقت روسيا بديلاً للحكومة البولندية فى المنفى التى كان مقرها فى لندن، وأطلقت على هذا البديل اسم «حكومة لوبلين»، التى كانت ـ فى واقع الأمر ـ دمية فى أيدى السوفييت. وفى يناير ١٩٤٥، اعترف «ستالين» بأن حكومة «لوبلين» هى الحكومة الوحيدة لبولندا. وبعد مرور شهر، وفى اجتماع «يالتا» حاول «تشرشل» و «روزفلت» استرجاع الموقف بالاصرار على إجراء انتخابات حرة، وقيام حكومة بولندية ذات قاعدة عريضة، تضم الشخصيات البارزة فى الحكومة الموجودة فى لندن. واعتقد «تشرشل» و«روزفلت» أنهما حققا معجزة عندما وافق «ستالين» على إجراء «انتخابات حرة دون قيود بأسرع ما يمكن، على أساس منح حق الاقتراع للجميع وسرية الاقتراع» وكذلك إعادة تشكيل الحكومة البولندية من خلال دعوة البولنديين المقيمين فى لندن. ولو أنه تم تنفيذ تلك الوعود، لوصلت الجبهات الديمقراطية إلى الحكم، محققة أفضل النتائج من وجهة نظر الغرب. ولكن «ستالين» لم تكن لديه النية مطلقاً للتخلى عن بولندا، كما أنه لم يقبل ـ إطلاقاً ـ تفسير الغرب لاتفاقيات «يالتا» أو أنه يعنى ما تقوله هذه الاتفاقيات.

وكان الجانبان يريدان حكومة صديقة فى بولندا، لأسباب استراتيجية بحتة. وعبر عن ذلك «ستالين» فى «يالتا» عندما قال: «بالنسبة للشعب الروسى.. فإن مسألة بولندا ليست مسألة كرامة وشرف فقط، بل مسألة أمن أيضا؛ فعبر التاريخ كانت بولندا الممر الذى عبره الأعداء للوصول إلى روسيا. وخلال الثلاثين سنة الماضية، مرّ أعداؤنا

ـ الألمان ـ مرتين من خلال ذلك الممر. إن بولندا بالنسبة للاتحاد السوفيتى ليست مسألة كرامة، ولكنها مسألة حياة أو موت». أما الغرب، فكان ينظر إلى بولندا بصورة مختلفة تماما، فهو يراها كنقطة أمامية أو كنقطة حدود أو الحصن الأمامى الذى يحمى الحضارة الأوروبية، ويصد قبائل الآسيويين الذين يستعدون لاجتياح أوروبا وغزوها. هذا الخوف الرهيب، وهو شئ ثابت فى تاريخ أوروبا، ازداد فى ١٩٤٥، بسبب ما حدث من فراغ فى ألمانيا، ولأن الجيش الأحمر أصبح فى ذلك الوقت أعظم قوة فى أوروبا كلها بلا منازع. وإذا ظل الجيش الأحمر قوياً ومتماسكاً، وإذا إحتل بولندا وشرق ألمانيا، وإذا سرحت أمريكا قواتها وأنهت التعبئة، وإذا وقعت بولندا فى أيدى الشيوعيين ـ وكل هذه الاحتمالات كانت واردة فى فبراير ١٩٤٥ ـ فلن يوجد عندئذ ما يمنع روسيا من اجتياح أوروبا كلها.

وحيث إن اهتمام «ستالين» بالحدود الروسية البولندية،كان أقل من اهتمامه بالحدود البولندية الألمانية وبطبيعة الحكومة البولندية، فقد وافق على أن تكون مكاسب روسيا فى بولندا محدودة، إلا أنه أصر على تعويض بولندا من خلال سيطرة بولندا على أجزاء كبيرة من الأراضى الألمانية. لقد كان «ستالين» يعتزم نقل الحدود الغربية لبولندا، حتى خط «أودر ـ نيس»، وبذا يضم بروسيا الشرقية وكل «سيليزيا»، بالإضافة إلى «بوميرانيا» حتى «ستيتين». وكان ذلك يعنى طرد حوالى ٦ إلى ٩ ملايين ألمانى، ورغم انزعاج البريطانيين والأمريكيين من ذلك، إلا أنه لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئا للحيلولة دون وقوعه؛ خاصة وأن الطريقة التى عومل بها البولنديون على يد الألمان، جعلت من الصعوبة بمكان معارضة اقتراح «ستالين» أو وصفه بأنه ليس عادلا. وعلى أية حال لم تكن المشكلة هى حدود بولندا، وإنما من الذى سيحكم بولندا، لذلك شعر روزفلت أنه خرج من مؤتمر «يالتا» منتصراً، لأنه نجح فى تعطيل مسألة الحدود وفى الحصول على وعد مؤكد من «ستالين» بإجراء انتخابات حرة.

ولكن «ستالين» سرعان ما بدأ فى تحطيم الوهم الأمريكى؛ فرفض إعادة تشكيل الحكومة البولندية بأى طريقة ملموسة، وفرض حظر حرية التعبير وحرية التجمع،

وحرية الدين، وحرية الصحافة فى بولندا، ولم يتخذ أى خطوة نحو تنفيذ وعده بإجراء انتخابات حرة. وقد اتبع الاتحاد السوفيتى نفس النمط (بدرجات متفاوتة) فى بقية دول أوروبا الشرقية، وأصبح واضحاً تماماً أن السوفيت لن يتخلوا عن تلك المنطقة بعد أن أصبحت فى قبضتهم؛ لقد أوصدوا الباب فى وجه الغرب تماماً. وبكل المعايير اتسمت أساليب السوفييت بعدم مراعاة أية حقوق للناس وبعمليات القمع الوحشية. وأصيب الغرب بصدمة وشعر أن ستالين خذله وخدعه.

ولقد عجز «ستالين» عن إدراك ذلك، أو شعر أنه لم يكن أمامه بديل آخر؛ إذ تعددت المرات ـ فى «يالتا» وغيرها ـ التى ظل «ستالين» يؤكد فيها على مشكلة أمن روسيا، ومدى احتياجها إلى السيطرة على الدول الواقعة على حدودها، لتحمى نفسها من ألمانيا ودول الغرب. إلا أن الأمريكيين رفضوا تصريحاته وقالوا إنها أكاذيب وخداع، وأدانوه بأنه مريض بجنون العظمة، وأنه يسعى إلى السيطرة على العالم كله. لذلك فإن ملايين الناخبين الإمريكيين الذين ترجع أصولهم إلى دول أوروبا الشرقية، بالإضافة إلى رجال الكنيسة الكاثوليكية، والعسكريين الذين أزعجهم الميزان الاستراتيجى الجديد فى أوروبا، قرروا أن مقاومة «ستالين» والوقوف فى وجهه، لا تقل أهمية عن الوقوف فى وجه هتلر.

كان الرئيس «ترومان» من أوائل ـ وقطعاً من أهم ـ الشخصيات التى بدأت تشعر بتلك النبضات، فعزم على أن يتبع سياسة متشددة مع روسيا، وهو الموقف الذى حاز قبول وتأييد كبار المسئولين الأمريكيين العاملين فى موسكو. وبعد مرور ثمانية أيام على تولى «ترومان» منصب الرئاسة ـ فى ٢٠ أبريل ١٩٤٥ ـ اجتمع مع السفير «هاريمان» لمناقشة العلاقات الأمريكية مع الاتحاد السوفيتى التى وصلت آنذاك إلى مرحلة حرجة؛ خاصة وأن الحرب كانت على وشك الانتهاء مما تطلب اتباع سياسات جديدة.

كان «هاريمان» قد وصل لتوه من موسكو، حيث كان متأثراً إلى درجة كبيرة بـ«جورج كينان»، كبير مستشاريه الذى كان من أكبر المعادين للاتحاد السوفيتى فى

الخارجية الأمريكية، وكان «كينان» معارضاً لسياسة «محو النازية» التى عزمت أمريكا على تطبيقها فى ألمانيا، بدافع من إحساسه بأن الألمان سرعان ما سينضمون إلى الولايات المتحدة فى مقاومة روسيا، إلا أن «كينان» لم يدعو إلى استخدام القوة.

لقد كان مؤمناً بأن روسيا لن تتمكن أبداً من الاحتفاظ بسيطرتها على أوروبا الشرقية، وأن تعاون الولايات المتحدة وروسيا بعد انتهاء الحرب ليس ضروريا حيث لم تكن هناك حاجة إلا لوجود اعتراف واضح وصريح بمناطق نفوذ كل دولة؛ وأن «ستالين» لم تكن لديه النية للزحف غرباً؛ والأهم من ذلك كله أنه «لاجدوى من وراء التطلع لأن يكون لنا تأثير على مجرى الأحداث فى المنطقة، التى امتدت إليها سيطرة روسيا بالفعل.» وعندما سأله «هارى هوبكنز» مستشار «روزفلت» الموثوق به: ما الذى يجب أن تفعله الولايات المتحدة، إزاء سيطرة روسيا على بولندا؟ أجابه «كينان» باختصار: «يجب ألا نقبل أى جزء من المسئولية» فسأله هوبكنز: «إذن.. أنت تعتقد أنها مجرد خطيئة، يجب علينا مقاومتها» وكانت إجابة «كينان»: «هذا قريب جداً من الصحة».

كان يمكن تبنى سياسة «عدم فعل أى شئ»، التى أشار إليها «كينان»، فقد كانت كل المؤشرات تؤكد أن «روزفلت» اعتزم اتباع تلك السياسة؛ إذ كان يرى أنه يمكن تحقيق التعاون المطلوب بعد انتهاء الحرب من خلال الأمم المتحدة. لذا كان «روزفلت» على استعداد للتغاضى عن الكثير فى سبيل ضمان تعاون «ستالين» كما كان على استعداد لاعتناق موقف واقعى (مثل كينان) تجاه التطورات التى جرت فى بولندا.

ومع ذلك فقد رفض «هاريمان» سياسة عدم التحرك، ووفقاً لـ«ترومان» أوضح «هاريمان» فى اجتماعهما يوم ٢٠ أبريل أن: «هناك عناصر معينة قريبة من «ستالين» أساءت تفسير كرمنا ورغبتنا فى التعاون على أنها دليل على التساهل، بحيث يمكن للحكومة السوفيتية أن تفعل ما تريد دون مخاطرة تحدى الولايات المتحدة لها.» ولكنه أكّد أن الاتحاد السوفيتى سوف يحتاج لمساعدات اقتصادية أمريكية لكى يعيد

بناء بلاده، «وبذا يمكننا أن نكون حاسمين إزاء القضايا المهمة، دون التعرض لمخاطر جمة». لكن «ترومان» قاطع «هاريمان» ليبلغه أنه «ليس خائفا من الروس»، وأنه «عقد العزم على أن يكون حاسما»، لأن «حاجة روسيا إلينا أكثر من حاجتنا إليها.» إن هذا التصريح لترومان يكشف الستار عن كثير مما وقع فيما بعد، لقد اعتمدت السياسة الخارجية الأمريكية ـ فى أعقاب الحرب ـ جزئياً، على الثقة فى عدم قدرة روسيا على الاعتراض على أى شئ تقوله أو تفعله الولايات المتحدة نظرا لحاجتها للأموال الأمريكية.

عندئذ حذر «هاريمان» من أن دول الغرب ستواجه «بغزو همجى لأوروبا». وبعد الاستمرار فى تلك النغمة بعض الوقت، أضاف «هاريمان» فى النهاية إن المفاوضات الدولية «تتضمن الأخذ والعطاء، وأن يقدم كل جانب بعض التنازلات». لقد حاول «ترومان» الحصـول على نصيب الأسد من المفاوضات مع الـروس، قائلاً إنه لم يتوقع «الحصول على ١٠٠٪ من مطالبنا» لكنه شعر أنه «لابد أن يحصل على ٨٥٪».

وكخطوة عملية أولى لضمان الـ ٨٥٪، وعد «ترومان» بإبلاغ «مولوتوف» وزير الخارجية السوفيتى ـ الذى كان متوقعا وصوله إلى واشنطن ـ أنه على الاتحاد السوفيتى أن يسرع فوراً بإجراء الانتخابات الحرة فى بولندا، ثم أضاف «ترومان» قائلا إنه عزم على أن يتحدث مع «مولوتوف» بمنتهى الوضوح «بما لا يدع مجالاً للشك.» وبعد انتهاء الاجتماع، اعترف «هاريمان» أنه هرع إلى واشنطن لأنه لم يكن متأكداً من أن «ترومان» قد استوعب حقيقة المشكلة السوفيتية. وقال هاريمان: «إننى أشعر الآن براحة غامرة، بعد أن اكتشفت أننى و«ترومان» متفقان على نفس الموقف».

بعد مرور يومين، اجتمع «ترومان» مع «مولوتوف» وكان فى الغالب اجتماعاً دبلوماسياً جرى فى جو من المودة والاحترام. وأشار «ترومان» إلى رغبته فى إجراء انتخابات حرة فى بولندا «نظراً لتأثير ذلك على الرأى العام الأمريكى»، فأجابه «مولوتوف» إنه مقدر لأهمية تلك النقطة، ولكنه أضاف قائلاً إن «ترومان» يجب أن

يفهم أن بولندا «أكثر أهمية للاتحاد السوفيتى» حيث إن بولندا تقع على حدود روسيا، بينما تبعد كل البعد عن الولايات المتحدة، فتجاهل «ترومان» تلك النقطة وأصر على أن يدرك «مولوتوف» أن الولايات المتحدة تعتبر بولندا بمثابة «اختبار ورمز لتطور علاقاتنا الدولية مستقبلاً».

وفى اليوم التالى ٢٣ إبريل ١٩٤٥ ـ عقد «ترومان» أول مؤتمراته الهامة فى مجال السياسة الخارجية بحضور «إدوارد ستيتينيوس» وزير الخارجية، و «ستيمسون» وزير الحربية، و«چيمس فورّستال» وزير البحرية، والأدميرالات «ويليام ليهى» و«إرنست كنج»، وچنرال «مارشال»، والسفير «هاريمان» وآخرون. وكان موضوع الاجتماع هو بولندا. وحدد «ترومان» سير المناقشات، عندما أعلن أنه صار واضحاً أن «اتفاقياتنا مع الاتحاد السوفيتى حتى الآن، لا تسير إلا فى اتجاه واحـد، وأن هذا الوضع لا يمكن استمراره»، ثم طلب من كل الحاضرين أن يعرضوا وجهات نظرهم.

بدأ «ستيمسون» قائلا إنه ما لم تفهم الولايات المتحدة تماماً «مدى خطورة مسألة بولندا بالنسبة لروسيا، فقد نجد أنفسنا متوغلين فى ورطة خطرة»؛ أما «فورّستال» فتبنى وجهة نظر مناقضة إذا قال إنه مقتنع بأنه: «إذا تمسكت روسيا بهذا الموقف الصارم.. فيجب علينا أن نواجههم الآن بدلاً من فيما بعد»؛ كذلك رأى «هاريمان» ضرورة اتخاذ الولايات المتحدة موقفاً حاسماً تجاه بولندا. لقد اعتقد «ستيمسون» : أنه «ربما كانت روسيا أكثر واقعية منا تجاه أمنها»، وأضاف «ليهى»: «إنه لم يتوقع أبداً من السوفييت أن يشرفوا على انتخابات حرة فى بولندا». أما چنرال «مارشال» الذى فضل اتباع سياسة حذرة تجاه بولندا، فقد أراد تجنب خصومة مع السوفييت، حيث إنه لم يكن هناك مفر من طلب مساعدة «روسيا» فى حرب المحيط الهادى.

وهكذا، كان على «ترومان» أن يختار أحد الطريقين، عند مقابلته لـ«مولوتوف» فى الساعة الخامسة والنصف. لقد انقسم مستشاروه البارزون على أنفسهم، فكان أمامه الإذعان لتصرفات السوفييت فى بولندا، أو الاستمرار فى المطالبة بالـ ٨٥٪.

واختار «ترومان» الطريق الثانى، فعند وصول «مولوتوف» صاح الرئيس فى وجهه مستخدما لغة البغال فى «ميسورى». لقد عبر المترجم عن ذلك بقوله: «لم يحدث أن سمع أبداً عن توبيخ رجل دولة بمثل هذه الطريقة». وفى نهاية اللقاء.. أبلغ «ترومان» قراره لـ«مولوتوف»: «هناك حل واحد فقط». على «ستالين» أن يعيد تشكيل الحكومة البولندية عن طريق جلب عناصر من حكومة المنفى فى لندن، وأن يجرى الانتخابات الحرة». وأخيراً علق «مولوتوف»: «لم يحدث أبداً فى حياتى أن تحدث معى أحد بهذا الاسلوب»، فأجابه «ترومان» قائلاً: «نفذوا اتفاقياتكم، ولن يتحدث معك أحد بهذا الاسلوب».

لقد أثار ذلك الموقف دهشة الروس وغضبهم، كما عبر عن ذلك «ستالين» فى ٢٤ أبريل فى خطاب موجه إلى «تشرشل» و «ترومان» بدأه قائلاً: «إن حدود بولندا متاخمة للاتحاد السوفيتى، وهذا لا ينطبق على بريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة» ثم عرج على الشكوى من تصرفات السوفييت فى بولندا قائـــلاً: «لســت أدرى إذا ماكانت الحكومة التى تأسست فى اليونان، حكومة ممثلة فعلاً، أو إذا ما كانت حكومة بلچيكا حكومة ديمقراطية حقاً. عندما قامت تلك الحكومات لم يهتم أحد باستشارة الاتحاد السوفيتى، الذى لم يزعم أنه له الحق فى التدخل فى تلك الأمور، لأنه كان مدركاً لأهمية بلچيكا واليونان لأمن بريطانيا العظمى». ثم قال: «إنه لم يستطع أن يفهم لماذا لم تتم فى الغرب أى محاولة لتفهم اعتبارات الاتحاد السوفيتى الأمنية كذلك».

كان من الصعب على «ستالين» أن يتفهم الموقف الأمريكى، كما كان صعبا على آخرين ممن كانوا خارج الصورة. وطوال سنوات الحرب قامت الولايات المتحدة بشجب مفاهيم «مناطق النفوذ وميزان القوى»، ونادت باستبدال تلك المفاهيم بعهد جديد يسوده السلام، بمساندة الأمن الجماعى للأمم المتحدة، وهى المنظمة المفتوحة أمام كل الدول الديمقراطية. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة ـ فى الواقع الفعلى ـ حافظت على سيطرتها على وسط وجنوب أمريكا (من خلال الديكتاتوريات

العسكرية فى معظم الأحوال). مما لا شك فيه أن إجراء انتخابات حرة فى أوروبا الشرقية، كان سيؤدى إلى انتخاب حكومات معادية للسوفييت، ولكن مما لا شك فيه ـ أيضا ـ أن إجراء انتخابات حرة فى أمريكا اللاتينية، كان سيؤدى إلى انتخاب حكومات معادية للولايات المتحدة.

لقد أدرك بعض الزعماء الأمريكيين ذلك التناقض الداخلى، وفى مايو ١٩٤٥ تبادل «ستيمسون» مع مساعده «جون ماكْـلُـوى» مخابرة تليفونية حول كيفية تحقيق التوازن بين مناطق النفوذ الأمريكى فى العالم الغربى، وبين مفهوم الأمم المتحدة؛ فوافق كلاهما على أن السماح لروسيا بتكوين منطقة نفوذ فى أوروبا الشرقية سيثير مخاطر الحرب، ويدمر فعالية الأمم المتحدة، كما أنهما اتفقا على ضرورة المحافظة على سيطرة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية؛ إذ قال «ستيمسون» : «لا أعتقد أنه يعد تجاوزاً أن تكون لنا منطقة صغيرة هنا؛ حيث إنها لم تكن أبداً مصدر إزعاج لأى أحد». أما «جون ماكْـلُـوى» فقد قال: «يجب أن نأكل الكعك الذى خبزناه.. ويجب أن يكون لنا مطلق الحرية فى ممارسة أعمالنا فى ظل تلك الاتفاقية الإقليمية فى أمريكا الجنوبية، وفى نفس الوقت حرية التدخل بحزم فى أوروبا؛ ويجب ألا نتخلى عن أى منهما». لقد نجحت الولايات المتحدة فى إصرارها على أن يتضمن ميثاق الأمم المتحدة مادة عن تجمعات الأمن الإقليمى، كان المقصود منها فعلياً هو استمرار النفوذ الأمريكى فى أمريكا اللاتينية.

لم تكن الولايات المتحدة مستعدة لتعويض «ستالين» عن أوروبا الشرقية، وكان اتجاه «ترومان» نحو مسألة بولندا انعكاساً لعدة عناصر؛ فبالنسبة للسياسة الداخلية كان هناك ملايين الأمريكيين الذين يرجع أصلهم إلى أوروبا الشرقية، بالإضافة إلى عدد لا حصر له من الناخبين الكاثوليك، الذين أغضبهم ما فعله السوفييت فى بولندا، فكان على «ترومان» أن يأخذ فى اعتباره وجهات نظرهم. كما أن «تشرشل» كان يمطر الرئيس بوابل من التلغرافات شديدة اللهجة، وكان «ترومان» يكن عظيم الاحترام لرئيس الوزراء البريطانى؛ أما «هاريمان» ـ الذى كان يشغل أهم موقع فى

موسكو ـ فقد أقنع «ترومان» أن روسيا لابد وأن تسلم بشروط الولايات المتحدة، مهما بلغت درجة تشددها؛ لأن روسيا لن يمكنها إعادة بناء بلادها دون المساعدات الأمريكية. هذا بالإضافة إلى أن «ترومان» زاد إحساسه بقوة الولايات المتحدة بعد أن وصله تقرير عن مشروع «مانهاتن» يفيد بقرب الانتهاء من صنع القنبلة الذرية. فضلاًعن ذلك، فإنه لايمكن بأى حال من الأحوال تجاهل أثر الاعتبارات الأيديولوجية إذ إن وحشية السوفييت وقمع الشيوعية للحريات التى لا غنى للغرب عنها، قد روعّـت رجالاً، مثل «ترومان» و «هاريمان» و «كينان».

لقد اعتبر «ترومان» و «هاريمان» الولايات المتحدة المدافع الرئيسى عن حضارة الغرب، إلا أن تلك السياسة تضمنت أبعاداً عنصرية؛ حيث إن تطبيق مصطلح «حضارة الغرب» على الملونين فى العالم كان يعنى حكم الرجل الأبيض. لقد انتهت فترة سيادة أوروبا الغربية، ولم يتبق من جنس الرجل الأبيض غير الأمريكيين الذين بإمكانهم الاستحواذ على جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى، بالإضافة إلى فرض شروطهم فى أوروبا الشرقية. ولكن ـ للمرة الثانية ـ كان أهم ما فى الموضوع هو أن جميع الأمريكيين ـ بمختلف طبقاتهم وتنوع آرائهم ـ كانوا ثائرين إزاء تصرفات روسيا فى أوروبا الشرقية.

من بين جميع العناصر والمقومات التى تشكلت منها هذه السياسة الأمريكية ـ مثل: عداء الشيوعية، وتشبيه «ستالين» بهتلر، والدوافع الاقتصادية، والاهتمام بالأمن العسكرى، وبالديمقراطية ـ نجد أن العنصر الذى استطاع تجسيدها كلها كان إحساساً رهيبا بالقوة والسيادة. لقد أكدت كل المؤشرات والدلائل أن الولايات المتحدة كانت أقوى دولة فى العالم بلا منازع. إن عديداً من الأمريكيين ـ بما فى ذلك شخصيات بارزة فى الحكومة ـ كانوا على ثقة من قدرة الولايات المتحدة على استخدام قوتها ونفوذها لإصدار الأمر إلى العالم كله باتباع الرأسمالية الديمقراطية على النمط الأمريكى.

ولكن ذلك لم يكن ممكناً، لسبب واحد عمد معظم الأمريكيين إلى عدم التفكير فيه، ونادراً ما ناقشوه، وغالباً ما تجاهلوه، ألا وهو أنه مهما بلغت عظمة سيادة أمريكا العسكرية وقوتها الإنتاجية، فإن لها حدودها التى لا يجب أن تتعداها؛ إذ لا يمكن لستة بالمائة من سكان العالم أن يتحكموا فى حياة الـ ٩٤٪ الباقية. وفى الواقع ترتب على ذلك وضع قيود على ما حاولت أمريكا تحقيقه، فمثلاً، كان استنكارها لتصرفات «ستالين» فى أوروبا الشرقية دائماً شفويا، ولم يحدث أن أرسلت قوات فى حملة لتحرير بولندا. ولكن الحذر فى التصرف أدى إلى إحساس عام بالإحباط خيم على ملايين الأمريكيين، بما فى ذلك الرئيس نفسه. لقد تمتع «ترومان» بقوة لم يسبق لها مثيل؛ فوضع للعالم برنامجا كان على ثقة من صلاحيته البديهية، ومع ذلك لم يستطع أن يحول دون توسع السوفييت.

لم يكن من الممكن أن يصل النفوذ الأمريكى إلى عظمة القوة الأمريكية، وهذا هو الدرس القاسى الذى أُجبر زعماء أمريكا والشعب الأمريكى على تعلمه خلال العقدين التاليين. لقد فاقت قوة الولايات المتحدة أى قوة أخرى فى العالم، ولكنها ـ فى حالات عديدة ـ لم تكن صالحة للاستخدام؛ أى لم يمكن تحويلها إلى نصر دبلوماسى. إن فيتنام أصدق دليل على عدم قدرة الولايات المتحدة على إجبار الآخرين على التصرف كما يحلو لها، إلا أن ذلك قد بدأ فى ١٩٤٥ ـ قبل فيتنام بفترة طويلة ـ بمحاولة «ترومان» تشكيل مجرى الأحداث فى أوروبا الشرقية.

لقد رفض «ترومان» سياسة «عدم التحرك» التى نصحه بها «ستيمسون» و «كينان» و «ليهى» و «مارشال» فى المؤتمر الذى عقد فى ٢٣ أبريل ١٩٤٥، لتقرير السياسة التى ستتبعها الولايات المتحدة، وبدلا من ذلك اعتنق سياسة صارمة، وهى التى أشار بها «هاريمان» و «فورستال»؛ حيث إنه وافق على رأيهما فى أن الاتحاد السوفيتى دولة همجية عازمة على الاستيلاء على العالم. لكن رغم إصراره على تحويل مسألة بولندا إلى قضية، إلا أنه لم يشعر أبدا أن أهمية بولندا تستحق المخاطرة بحرب عالمية ثالثة. إن «ترومان» لم يهدد باستخدام القوة لفرض آرائه، ويرجع

ذلك جزئياً إلى أنه كان لا يزال معتقداً أن استخدام الضغوط الاقتصادية، يمكن أن يجبر «ستالين» على الإذعان له. وكان العالم كله قد سأم الحرب، والشعب الأمريكى يطالب بتسريح الجيش، والجيش الأحمر فى أوروبا كان أقوى من أن يفكر «ترومان» فى الحرب؛ ولذلك كان الرئيس يتبع سياسة محكوماً عليها بالفشل، لأنه رفض أن يرضى بأى شئ أقل من ٨٥٪. لقد شعر «ترومان» أنه لا يستطيع أن يطالب بأقل من ذلك، من منطلق رأيه فى الاتحاد السوفيتى، ورغبته فى نشر المثاليات الأمريكية والنفوذ الأمريكى حول العالم. ولكن «ستالين» رفض أن يتراجع عن موقفه، فتحطم الحلف العظيم، وهكذا وجهت الموارد التى كان يمكن استخدامها فى إعادة بناء العالم، الذى مزقته الحرب، إلى إعادة التسليح.

فجأة ـ فى ٨ مايو ١٩٤٥ ـ كشف «ترومان» عن الخطوط العريضة لسياسة استخدام الضغوط الاقتصادية التى اعتزمت امريكا ممارستها لفرض الإذعان لمطالبها. وفى يوم النصر، وقع «ترومان» على قرار تنفيذى بإنهاء الشحنات المرسلة من الولايات المتحدة إلى حلفائها، على سبيل «الإعارة والإيجار»، ثم فرض حظراً على كل الشحنات المتجهة إلى «روسيا» والدول الأوروبية الأخرى، فأجبرت بعض السفن المتجهة ـ فعلاً ـ إلى روسيا على العودة وإفراغ حمولتها فى الموانئ الأمريكية، بدون توجيه أى إنذار إلى روسيا أو بريطانيا (المنتفعين الأساسيين)؛ وكانت كل من الدولتين قد خططتا لإعادة تعمير دولتيهما على أساس استمرار تسهيل «الإعارة والإيجار». وفى الاجتماع التنظيمى للأمم المتحدة ـ الذى عقد فى سان فرانسيسكو ـ عقّب «ستيتينوس» وزير الخارجية فى تصريح مهيب لم يعبر عن حقيقة الموقف، قائلاً: إن القرار الذى أصدره ترومان كان «توقيته سيئاً، ولم يساعد على تحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية». وثار غضب «ستالين»، فقام «ترومان» بإرسال «هارى هوبكنز» إلى موسكو لمحاولة تهدئته؛ وكانت مهمة هوبكنز أن يشرح «لستالين» أن الموضوع كله كان خطأً فادحاً. وألغى «ترومان» القرار الخاص «الإعارة والإيجار»، واستؤنف تدفق المؤن من جديد.

لقد تقبل «ستالين» التبرير الذى قُـدّم له، ولكن الخطأ لم يكن خطأ سياسة، وإنما خطأ توقيت، كما أوضح «ستيتينوس». لم يكن فى نية الولايات المتحدة أن تستمر فى إرسال المؤن إلى روسيا أو بريطانيا بمجرد استغنائها عن مساعدتهما لها فى حرب المحيط الهادى. ولم يكن استياء «ستيتينوس» بسبب إنهاء تسهيل «الإعارة ـ الإيجار»، وإنما كان مبعث استيائه هو أن الولايات المتحدة كشفت الستار عن تغيير سياستها قبل إعلان السوفييت الحرب على اليابان.

فى النهاية فشلت سياسة ممارسة الضغوط الاقتصادية. ففى يناير ١٩٤٥ طلب «ستالين» قرضاً قيمته ٦ بلايين دولار، ولكن وزارة الخارجية رفضت مناقشة الطلب، إلا إذا أصبح «ستالين» أكثر تفهماً إزاء مطالب الولايات المتحدة فى أوروبا، وعلى حد تعبير «هاريمان» الذى قال: يجب مساعدة السوفييت «فقط إذا وافقوا على التعاون معنا فى حل المشاكل الدولية طبقاً لمعاييرنا». وفى نهاية ١٩٤٥ طلب السوفييت قرضا قيمته بليون دولار، ولكن حكومة الولايات المتحدة «فقدت» طلب القرض. وعندما تم العثور عليه بعد عدة أشهر، عرضت وزارة الخارجية مناقشة القرض إذا تعهد السوفييت «بعدم التعصب أو التمييز فى مجال التجارة الدولية»، وذلك بالسماح للاستثمارات والسلع الأمريكية بدخول مناطق نفوذ روسيا. ورفض «ستالين» ذلك العرض، وبدلاً من ذلك أعلنت روسيا عن خطة خمسية جديدة لإعادة بناء الصناعة الثقيلة ولضمان «استقلال الاتحاد السوفيتى اقتصادياً وفنيا». لقد اتجهت روسيا ـ فى سبيل إعادة البناء ـ إلى الإدخار الإجبارى الداخلى على حساب معاناة مواطنيها، وكذلك إلى الاستحواذ على كل ما يمكن نقله من المناطق التى احتلوها فى أوروبا الشرقية.

وخلال المناقشات التى دارت بين «ستالين» و «هوبكنز» حول مسألة بولندا لم يستطع هوبكنز التأثير على الديكتاتور السوفيتى، فكان على الولايات المتحدة أن تختار بين الاعتراف بالحكومة الروسية فى بولندا، وبين قطع العلاقات. وهكذا وافق «ترومان» فى يونيه على الحل الذى لم يكن من الممكن تجنبه، وبدأت الولايات

المتحدة علاقتها مع الحكومة الشيوعية فى بولندا، ثم استمرت فى محاولة إجبار بولندا على قبول ما أطلقت عليه وزارة الخارجية «سياسة منحنا فرصاً متكافئة فى التجارة والاستثمار، وحرية الحصول على المعلومات» ولكن لم تكن هناك أية فرصة لنجاح تلك السياسة. لقد تعرضت الولايات المتحدة لهزيمة خطيرة، طبقا لوجهة نظر عدد كبير، وهو ما أثار درجة كبيرة من الاستياء لم يكن من الممكن اغفالها.

كانت ثانى المهام الخطيرة التى تولاها «هوبكنز»، هى التأكد من دخول روسيا حرب المحيط الهادى، ففى ٢٨ مايو أبرق «ترومان» مهللاً: «سوف ينتشر الجيش السوفيتى على جبهة مستعرضة فى موقع مانشوريا بحلول ٨ أغسطس». وبالطبع كان هناك مقابل؛ لقد توقع «ستالين» من «ترومان» أن يعمل على أن ينفذ «تشيانج» الوعود التى قدمها «روزفلت» فى «يالتا» فى مقابل أن يقوم «ستالين» بتأييد زعامة «تشانج» للصين؛ ولم يبد ترومان أية اعتراضات. وكما قال «هوبكنز» إن «ستالين» توقع الاشتراك فى احتلال اليابان، وإنه أراد التوصل إلى اتفاقية مع الجانب البريطانى والأمريكى لتحديد مناطق الاحتلال فى اليابان، ولكن «ترومان» لم يرد على ذلك المطلب؛ إذ كان من الممكن التوصل إلى تلك الاتفاقية فى «بوتسدام» حيث كان من المقرر اجتماع الثلاثة الكبار فى يوليه ١٩٤٥.

وفى بوتسدام، قال «ترومان» «إن غرضه الحالى، هو العمل على دخول روسيا الحرب ضد اليابان، بأسرع ما يمكن» لأنه أدرك «أن دخول روسيا الحرب يعنى إنقاذ أرواح مئات الآلاف من الأمريكيين». إلا أنه لم يكن من الممكن إنقاذ أرواح الأمريكيين إلا على حساب أرواح الروس، وهى تضحية لم يكن «ستالين» على استعداد لقبولها دون مقابل. ولقد أدرك «ترومان» تلك الحقيقة؛ مما يدل على أنه كان على استعداد لتقديم بعض التنازلات مقابل الحصول على مساعدة روسيا، وهو الاتجاه الذى تم تأكيده من خلال هدفه الثانى من «بوتسدام»، وهو «التوصل إلى علاقة عمل مع الروس لتجنب كارثة عالمية أخرى.»

وعلى أية حال، فإنه بمجرد بدء الاجتماع، ظهرت نقاط خلاف لا يمكن حلها. لقد اقترح «ترومان» بنداً فى جدول الأعمال، خاصاً باتفاقية لإعادة تشكيل حكومات رومانيا وبلغاريا تنص على إجراء انتخابات حرة مبكرة. وبدلا من ذلك، اقترح «ستالين» مناقشة مسألة التعويضات التى ستدفعها ألمانيا، والدول التى ستوضع تحت وصاية روسيا (تضمنت طلباته العديدة طلب نصيب فى المستعمرات الإيطالية فى أفريقيا)، ووضع نهاية لحكم «فرانكو» فى إسبانيا، وتسوية مسألة حدود بولندا الغربية عند خط «أودر ـ نيس» مع تصفية حكومة المنفى فى لندن. واستمرت المناقشات إلى ما لا نهاية دون تسوية أى مسألة من المسائل المهمة.

كانت العلامات المميزة لبوتسدام، هى: الثرثرة، والتقريع وتصيد الاخطاء. لقد سمحت روسيا للبولنديين بأن يتولوا إدارة شرق ألمانيا، فاعترض «ترومان» و «تشرشل» بأن ادارة البولنديين تعنى الإخلاء الإجبارى أو الموت لملايين الألمان؛ كما يعنى أن روسيا أصدرت قراراً أحاديّ الجانب يجلب سلطة احتلال أخرى إلى ألمانيا. لكن «ستالين» لم يعبأ بانتقاداتهم قائلا إن كل الألمان غادروا المنطقة فعلاً، وإن مسألة الحدود قد تم الاتفاق عليها فى يالتا (كان كلا الأمرين خطأ). كما أراد السوفييت الاشتراك مع تركيا فى السيطرة على بوغاز البحر الأسود؛ فاقترح «ترومان» عقد اتفاقية دولية تضمن فتح البوغاز لكل الدول فى جميع الأوقات كبديل لإقامة حصن أو لاشتراك روسيا فى التحكم فى البوغاز. عندئذ تساءل «مولوتوف» عما إذا كان من الممكن إدارة قناة السويس بنفس الأسلوب، فأجابه «تشرشل» بأن مسألة قناة السويس لم تثر بعد، فما كان من مولوتوف إلا أن أفحمه قائلاً: «أنا أثيرها»، فعلق تشرشل على ذلك قائلاً إن البريطانيين تولوا إدارة قناة السويس، لأكثر من سبعين سنة، دون أى شكاوى، فأجابه «مولوتوف» بأن هناك شكاوى متعددة، «يجب أن تسأل مصر».

كانت قضية ألمانيا هى محور القضايا فى «بوتسدام»، وكان الثلاثة الكبار قد سبق أن اتفقوا فى «يالتا» على تقسيم ألمانيا إلى أربعة قطاعات (القطاع الرابع للفرنسيين)، يتولى حكم كل قطاع منها القائد العسكرى المحلى. ولقد شكلت هذه القيادات

مجلس الحلفاء الذى كان مهمته وضع قواعد إعادة توحيد ألمانيا. وكانت القاعدة التى تحكم مجلس الحلفاء، هى ضرورة الموافقة بالإجماع على كل قرار يتخذه المجلس، وهى القاعدة التى كانت لها انعكاسات سلبية هائلة على إعادة توحيد ألمانيا، فبريطانيا والولايات المتحدة كانتا تهدفان إلى تحقيق نتيجة مخالفة تماماً لما كان يريده الفرنسيون والروسيون. كان هدف بريطانيا والولايات المتحدة أن تكون ألمانيا متكاملة سياسياً، وأن تعتمد على نفسها صناعياً، أما القوتان الأخريان اللتان احتلتا ألمانيا، فكانتا تريدان أن تظل ألمانيا منقسمة وضعيفة. وكان من المستحيل التوفيق بين تلك الأهداف والاتجاهات المتضادة، وعلى أية حال لم تبذل أية محاولة جادة فى «بوتسدام» للعمل على التقريب بينهما، ولقد وافقت الولايات المتحدة على ألا تتعدى الصناعة الألمانية مستوى محدداً، ولكن خلال عام ـ أو أقل ـ انتهكت هذه الاتفاقية.

لكن فى «بوتسدام» حاولت الدول حسم مشكلة التعويضات الألمانية؛ حيث أكدت الولايات المتحدة ـ فعلياً ـ أنها لن تستمر فى منح تسهيل «الإعارة والإيجار» بعد الحرب، كما أنها لن تمنح الاتحاد السوفيتى أية قروض؛ فقد أصبح موضوع التعويضات الألمانية موضوعاً حاسماً بالنسبة لستالين. ولكن الاعتبارات الجغرافية لم تكن فى صفه لأن منطقة «الرور»، وهى أغنى منطقة صناعية فى ألمانيا، كانت فى القطاع البريطانى. أما الميزة التى تمتع بها فهى أنّ الرور لم يتمتع بالاكتفاء الذاتى فى المجال الزراعى، وأن روسيا سيطرت على المناطق الزراعية المهمة فى ألمانيا.

وفى النهاية تم التوصل إلى اتفاقية، اعترفت دول الغرب ـ بمقتضاها ـ بخط «أودر ـ نيس» كحدود شرقية لألمانيا، ووافق «ستالين» على تقييم حصته فى التعويضات بـ ٢٥ ٪ من المعدات الرأسمالية الألمانية من القطاعات الغربية، بشرط أن تكون نسبة ١٥ ٪ من تلك الحصة فى مقابل الحصول على غذاء من شرق ألمانيا، كما مُنح «ستالين» التصرف المطلق فيما يتعلق بالتعويضات المطلوبة من القطاع الروسى، الذى سرعان ما سلبه.

هناك نقطة ربما فاقت فى أهميتها الاتفاقيات والمناقشات التى عقدت فى «بوتسدام»، ألا وهى الانطباع الذى تركته على «ترومان» بحيث عاد إلى البيت الأبيض بسياسة جديدة. لقد أدرك فى «بوتسدام» أن القوة هى الشئ الوحيد الذى يفهمه الروس؛ إذ قرر أنه لن «يخاطر مرة أخرى بالاتفاق مع روسيا على مهمة مشتركة»، حيث تبين له إن التفاهم معهم مستحيلاً. وكانت النتيجة المباشرة لذلك القرار، هى تصميم «ترومان» على «عدم السماح باشتراك روسيا فى السيطرة على اليابان بأى شكل... أثناء رحلة العودة إلى الوطن فكرت مليّـا فى الأوضاع الحالية، وقررت أن يتولى جنرال «ماك آرثر» القيادة المطلقة للعمليات فى اليابان، وبعد النصر يمنح السيطرة التامة على اليابان»؛ أى إنه قرر أن يطالب ويحصل ـ على الأقل فى المحيط الهادى ـ على ما يفوق الـ ٨٥ ٪ التى أرادها.

إن إختبار القنبلة الذرية الذى أجرى ـ بنجاح ـ أثناء تواجد الرئيس فى «بوتسدام»، شجعه على أن يتخذ موقفاً أكثر صرامة. لقد انتشرت فكرة عامة فى الدوائر العليا للحكومة الأمريكية، مؤداها أن امتلاك أمريكا للقنبلة الذرية سيؤدى ـ على حد قول «ستيمسون» ـ إلى «علاقات أقل همجية مع روسيا»، أو على حد قول «بايرنز» فى يونية ١٩٤٥ «إن القنبلة تسهل مهمة التعامل مع روسيا فى أوروبا».

إن القنبلة ـ بالإضافة إلى الوضع المالى الذى تميزت به الولايات المتحدة ـ قد زودت «ترومان» وكبار مستشاريه بإحساس بالقوة الهائلة. ومنذ اجتماع «بوتسدام» أصبحت القنبلة هى العنصر الثابت فى كل تعامل للولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتى. وكان «ستيمسون» موفقاً عندما شبه السياسة الجديدة «بالإحساس بالتباهى والتفاخر لحمل ذلك السلاح حول خصرنا»، وهى السياسة التى أدت ـ كما اعترف فيما بعد ـ إلى تغذية «شكوك روسيا، وعدم ثقتها فى أهدافنا ودوافعنا».

لقد بدت القنبلة وكأنها معجزة مرسلة من السماء إلى الأمريكيين، فقد أصبح فى استطاعتهم فرض رغباتهم على أى أمة بمجرد التهديد باستخدام القنبلة. إن إنهاء أى عدوان سيكون أبسط من البساطة، فلن يتطلب الأمر أكثر من إلقاء القنبلة.

وسوف تتمكن الولايات المتحدة من أن تحافظ على مراكز نفوذ فى أوروبا، دون الاضطرار إلى استبقاء جيش ضخم هناك؛ فبعد القضاء على ألمانيا، سيكون على دول الغرب أن تجابه الجيش الأحمر، وحيث إن الولايات المتحدة كانت الدولة الوحيدة التي يمكنها تولى تلك المهمة، فقد كان ذلك مصدر مخاوف الدوائر العسكرية الأمريكية. ولكن واقع السياسة الداخلية فى الولايات المتحدة كان يحول دون الاحتفاظ بجيش إلزامى ضخم فى أوروبا، بعد انتهاء الحرب، هذا بالإضافة إلى اتجاه الحزب الجمهورى ـ الذى سيطر على الكونجرس بعد فترة وجيزة ـ إلى الدعوة إلى ضرورة تخفيض الضرائب، وتوازن ميزانية الدولة. وبالتالى فإنه لن يتوفر للدولة الرجال والأموال التى تمكنها من الاشتراك الفعلى فى حرب.

وهكذا بدت القنبلة الحل الوحيد لكل تلك المشاكل، إذ أصبح الجيش الأمريكى قادرا على الخوض فى حرب باردة دون أن يتطلب ذلك أى تضحيات من المواطنين. كما تم تحييد الجيش الأحمر، أو حتى القضاء عليه. كان أمل الزعماء الأمريكيين هو تشكيل عالم ما بعد الحرب، عن طريق الاستخدام الحكيم للتسهيلات المالية، والتهديد المقنع باستخدام القنبلة. وفى خريف ١٩٤٥، اجتمع «ترومان» مع «ديجول» الذى كان قلقاً بخصوص نوايا جنرال «لوشيوس كلاى» قائد قوات الاحتلال الأمريكية فى ألمانيا، حول إعادة توحيد ألمانيا وتحسين مستوى إنتاجها، وكذلك بخصوص وجود الجيش الأحمر فى وسط أوروبا؛ ولكن «ترومان» لم يجد أى داع للقلق، وبرر ذلك ـ ارتجالا ـ بأن الولايات المتحدة ستستخدم القنبلة الذرية لصّـد أى دولة تتجه إلى العدوانية.

فيما بعد أطلق على تلك الاستراتيجية «سياسة الانتقام الشامل» التى كان يعيبها ـ حتى فى ١٩٤٥ ـ أنها كانت بعيدة عن الواقع؛ لأن القنابل الذرية فى فترة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ لم تصل قوتها إلى الحد الذى يرهب روسيا، كما لم تصنع الولايات المتحدة كم من القنابل يمكنها من وضع برنامج واقعى للانتقام الشامل. ولقد أدرك السياسيون تلك الحقائق ـ تدريجيا ـ ولكنها أضافت صبغة معينة على الموقف العسكرى منذ البداية، فحتى إذا تمكنت القوات الجوية الأمريكية من إلقاء كل القنابل المتوفرة لها فى ١٩٤٧ أو ١٩٤٨، فإنها لم تكن كافية لتدمير روسيا.

بفرض أن أسوأ مخاوف الغرب من روسيا قد تحققت وتوغلت روسيا عبر الألب، فإن أقصى ما كان يمكن أن تنجزه القنابل، هو الانتقام من المناطق الرئيسية الآهلة بالسكان فى روسيا، وهو ما كان سيؤدى إلى قتل عشرات الآلاف؛ ولكن ذلك لم يكن ليؤدى إلى القضاء على آلة الحرب الروسية، أو الحد من فعاليتها. وكان فى إمكان «ستالين» أن يأمر السوفييت باحتلال أوروبا الغربية، رداً على التدمير الأمريكى لموسكو، فقد كان الجيش الأحمر قوة رادعة تماثل فى فعاليتها القنبلة الذرية. كما أن عملية الانتقام الشامل، كانت تنطوى على مشاكل نفسية، بالإضافة إلى المشاكل العسكرية، ومهما كانت القيود التى وضعت على القنبلة، فقد كان العالم يرى أنها السلاح المطلق، وهو اتجاه شجعته الصحافة الأمريكية والساسة الأمريكيون. وفى النهاية، أدى ذلك الاتجاه إلى عكس النتائج المرجوة منه، حيث أصبح معنى ذلك هو عدم استخدام القنبلة، إلا فى الحالات القصوى، وبذلك صار التهديد باستخدام القنبلة لصدّ العدوان أسهل على الولايات المتحدة من العثور على عدوان تصل خطورته إلى الحد الذى يبرر استخدام القنبلة؛ فمثلاً.. عندما استولى الشيوعيون على تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٤٨، لم يعتقد أى مسئول بالإدارة الأمريكية أن الاعتداء كان من الوحشية بحيث يستدعى إسقاط القنابل على موسكو. وكذلك فإنه نظراً لأن الولايات المتحدة وضعت ثقتها فى القنبلة، فإنه لم تعد لديها أية وسائل أخرى لردع المعتدى، ولذلك لم تستطع أن تفعل أى شئ، وأصبح ذلك الإحساس بالعجز واضحاً ـ فى واقع الأمر منذ ١٩٤٥.

لم تحدث حيازة أمريكا للقنبلة أى تأثير ملحوظ على سياسة «ستالين» فى أوروبا الشرقية؛ إذ استمر بمشاركة «مولوتوف» فى التصرف كما كان يحلو لهما، رافضين إجراء انتخابات، أو السماح للمراقبين من دول الغرب بالتنقل بحرية عبر أوروبا الشرقية، واستمرت روسيا ـ فى اجتماعات وزراء الخارجية ـ مصرة على ضرورة اعتراف الغرب بالحكومات «الدمية» فى أوروبا الشرقية، قبل صياغة معاهدات السلام. وهكذا أجهض أمل «بيرنز» فى أن تؤدى القنبلة إلى سهولة انقياد روسيا. وبحلول صيف ١٩٤٦م كان الجانبان قد تقبلا واقع انقسام أوروبا.

إن عدم ثقة روسيا فى دول الغرب، بالإضافة إلى تصميم «ستالين» على تضييق الزمام على المناطق الخاضعة له، نما لدرجة رفض «مولوتوف» التفكير جدياً فى الاقتراح الذى تقدم به «بيرنز» وزير الخارجية، ومؤداه أن توقع القوى العظمى الأربعة معاهدة لتوحيد ألمانيا ونزع سلاحها، وهو الاقتراح الذى كان يمثل أفضل الحلول لمشكلة ألمانيا. وبدلا من ذلك توقف السوفييت عن نقل المعدات من شرق ألمانيا، وبدأوا فى استخدام العمالة الماهرة من الألمان فى قطاعهم لإنتاج بضائع جاهزة، تولوا شحنها إلى الاتحاد السوفيتى. وفى تلك الآونة، قام الجنرال «كلاى» فى ٣ مايو ١٩٤٦، بإبلاغ روسيا بألاَّ تتوقع مزيداً من التعويضات من القطاعات الغربية، وفى نهاية ذلك العام، ألقى «بيرنز» وزير الخارجية خطاباً فى «شتوتجارت» (نال دعاية واسعة النطاق) أعلن فيه أنه يجب على ألمانيا أن تنمى صادراتها ليصبح لديها اكتفاء ذاتى؛ كما قال «بيرنز» إنه يجب السماح للألمان بتحمل مسئولية إدارة شئونهم المحلية ـ بشكل مباشر ـ بالإضافة إلى السماح لهم بزيادة إنتاجياتهم الصناعية (وهى السياسة التى كان «كلاى» قد بدأ فى تطبيقها بالفعل)، ثم أكد على أن الوجود الأمريكى فى وسط أوروبا لن يمحى.

فى سنة ١٩٤٦، كان من الصعب التوصل إلى حلول ترضى الجانبين الشرقى والغربى، وقد انطبق ذلك الجمود بصفة خاصة على موضوع القنبلة الذرية. ومهما كانت القيود التى وضعت على حجم وعدد الأسلحة النووية ـ فى نصف العقد الأول من العصر الذرى ـ فإنه كان من الواضح أن توقعات النمو كانت مطلقة تقريباً، وأنه كان لابد من حسم مسألة التحكم فى القنبلة لصالح العالم كله فى المستقبل. ومع ذلك، فإن كيفية وضع ذلك السلاح تحت الرقابة لم تكن واضحة، فمن ناحية، كانت الولايات المتحدة محتكرة للقنبلة، وهى ميزة ليس من السهل على أى دولة أن تتخلى عنها. وفى الجانب الآخر أجمع كل علماء الذرة على أنها مسألة وقت فقط قبل أن تنتهى السوفييت من تصنيع القنبلة. فإذا أنتجت روسيا أسلحة ذرية خاصة بها، وإذا استمر التعامل مع تلك الأسلحة بهدوء كأى سلاح عسكرى آخر تستخدمه الدول ذات السيادة كيفما أرتأت؛ لكان على العالم أن يعيش فى ذعر مستمر.

إن صعوبة التوصل إلى حل بشأن الرقابة على الأسلحة الذرية يرجع بشكل خاص إلى عرض الاقتراحات الأمريكية الروسية ـ فى هذا الصدد ـ فى الوقت الحرج الذى ساد العالم بعد الحرب؛ فقد تكررت الأزمات بين القوات المحتلة فى ألمانيا على نحو يومى تقريبا، كما ساد جو من التوتر فى منطقة البحر المتوسط، وصل إلى الذروة فى إيران وتركيا. فقد اقتضت شروط معاهدة الاحتلال التى تم توقيعها فى ١٩٤٢ أن تنسحب قوات روسيا من إيران، بعد ستة أشهر من انتهاء الحرب ولكن روسيا رفضت ذلك لأن «ستالين» أراد الحصول على تنازلات من الحكومة الإيرانية فى مجال البترول؛ ولذلك قامت روسيا بمساندة التمرد الذى وقع فى شمال إيران كوسيلة للضغط على الحكومة الإيرانية. وعندما تفاقمت الأزمة أرسل «بيرنز» فى ٦مارس ١٩٤٦ مذكرة شديدة اللهجة إلى موسكو، مطالباً بالانسحاب الفورى للقوات الروسية. وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع، أعلنت إيران وروسيا انسحاب قوات الاحتلال السوفيتية من شمال إيران، كما أعلنت تكوين شركة إيرانية سوفيتية مشتركة لإنتاج البترول، بمقتضى معاهدة أشترط تصديق البرلمان الفارسى عليها. وانسحبت روسيا فى ٦ مايو، وفى أوائل ١٩٤٧ رفض البرلمان معاهدة شركة البترول.

وهكذا اتسعت المسافة التى باعدت بين الحلفاء السابقين، كما اتضح من رد الفعل لتلك الأزمة الدبلوماسية السوفيتية المهمة. من وجهة نظر روسيا، بدا لها أن السماح بالمساهمة فى اكتشاف البترول الإيرانى حل عادل؛ ولذا رأت روسيا أن إكراهها على الانسحاب، كان دليلاً على إن دول الغرب عادت إلى حيلها القديمة من أجل تضييق الخناق على الاتحاد السوفيتى، وإلى الإقدام على أى شئ لكى تبقيه ضعيفا. أما من وجهة نظر أمريكا فقد أثبتت الأزمة مرة أخرى أن السوفييت عاقدون العزم على الاستيلاء على العالم.

لقد فسر «تشرشل» ذلك الحدث وغيره من الأحداث للشعب الأمريكى، فى خطاب ألقاه فى «فولتون، ميسورى»، يوم ٥ مارس ١٩٤٦؛ حيث أعلن و «ترومان»

بجانبه على المنصة.. «لقد أُنزل ستار حديدى عبر القارة، يمتد من ستيتتين فى البلطيق إلى تريستا فى بحر الادرياتيك»، وإن هدفه هو رفع ذلك الستار وتحرير أوروبا الشرقية، وكبح جماح السوفييت فى الأماكن الأخرى مثل إيران وتركيا. واقترح تكوين جمعية ودية من الشعوب الناطقة بالإنجليزية لأداء تلك المهام، على أن تمارس أعمالها خارج نطاق الأمم المتحدة، عن طريق استخدام القنبلة الذرية، التى قال «تشرشل»: «إن الله قد اختص بها» الولايات المتحدة وحدها.

لكن خطاب «تشرشل» أساء إلى الجهود التى كانت تبذلها الولايات المتحدة فى ذلك الوقت للتوصل إلى شكل مقبول للرقابة الدولية على القنبلة الذرية. لقد اتسم رد فعل «ستالين» بالضراوة الشرسة التى يدافع بها حيوان مجروح عن نفسه، فقارن بين «تشرشل» وأصدقائه الأمريكيين وبين «هتلر»، وأتهمهم بأنهم ـ مثل «هتلر» ـ تمسكوا بنظرية عنصرية، عهدت بسيادة العالم إلى الشعوب الناطقة بالإنجليزية. لقد قال «ستالين» إن خطاب «تشرشل» كان «دعوة إلى الحرب مع الاتحاد السوفيتى» ثم ذكّـر دول الغرب بأن ألمانيا هاجمت روسيا مرتين خلال الماضى القريب عن طريق دول أوروبا الشرقية التى كانت «حكوماتها معادية للاتحاد السوفيتى». بعد مرور ثلاثة أسابيع على خطاب الستار الحديدى الذى ألقاه تشرشل، رفض الاتحاد السوفيتى أن ينضم إلى عضوية البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، وأعلن بداية خطة خمسية جديدة؛ صـممت بحيث تحقق لروسيا الاكتفاء الذاتى فى حالة وقوع حرب أخرى، وصعّـدت روسيا الضغط على إيران، وكرست جهوداً أيديولوجية مكثفة لإزالة كل أوجه النفوذ الغربى داخل الاتحاد السوفيتى.

ولكن «ستالين» ـ مثله فى ذلك مثل «ترومان» ـ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب، واتضح ذلك من الأحداث التركية المتعلقة بالسيطرة على الدردنيل. ففى أغسطس ١٩٤٦ طالب «ستالين» الأتراك بالمشاركة المتساوية فى إدارة المضيق، وكانت تلك المشاركة حلماً من الأحلام الروسية القديمة، ولكن «دين اتشيسون»، وكيل وزارة الخارجية، فسر طلب روسيا على أنه محاولة منها للسيطرة على تركيا،

وتهديد اليونان، واثارة الرعب فى بقية دول الشرق الأوسط؛ لذا فضّـل المواجهة فى هذا الموقف، ووافقه «ترومان» قائلا: «يحسن أن نكتشف إذا ما كانت روسيا عاقدة العزم على الاستيلاء على العالم الآن، أفضل من الانتظار خمس أو عشر سنوات» ولذا قامت الولايات المتحدة بإبلاغ تركيا بأن تتخذ موقفاً صارماً، وأرسلت لمساندتها أحدث حاملة طائرات أمريكية عبر المضيق، فتراجع السوفييت.

فى ذلك الجو المتسم بالتهديدات، والتهديدات المضادة، وبالمخادعة، والمخادعة المضادة أصبح من المستحيل تقريباً التوصل إلى اتفاق مقبول للرقابة الدولية على الأسلحة الذرية. وفى ١٦ مارس ١٩٤٦ نشرت الولايات المتحدة خطة أطلق عليها «اقتراح أتشيسون ـ ليلنثال»، الذى دعا إلى التوصل إلى الرقابة الدولية، من خلال سلسلة من المراحل، وكان الاقتراح محاولة صادقة لتفادى العالم الرعب المترتب على تبادل روسيا والولايات المتحدة صليل سيوف ذات رؤوس نووية. ولكنه مع ذلك، لم يحظ برضاء السوفييت؛ لأن اقتراح «آتشيسون ليلنثال» احتفظ للولايات المتحدة ـ خلال المراحل الانتقالية ـ بحق السيطرة التامة على قنابلها الخاصة. لقد صرح «أتشيسون» أنه «إذا أخفقت الخطة فى أى وقت خلال المرحلة الانتقالية، سنكون فى موقف إيجابى بالنسبة للأسلحة الذرية» فإنه لم يكن متاحاً ـ فى نفس الوقت ـ للسوفييت تصنيع قنبلة خاصة بهم.

فى ظل توتر العلاقات السوفيتية الأمريكية ،كان من المستبعد أن تذهب الولايات المتحدة إلى أبعد من ذلك حول قضية المشاركة فى القنبلة، كما كان من المستبعد قبول روسيا لهذا الوضع. وعرضت روسيا اقتراحاً مضاداً، طالب بوضع نهاية لإنتاج واستخدام الأسلحة الذرية، مع الإصرار على تدمير كل المخزون الموجود من القنابل الذرية، خلال ثلاثة شهور، وعندئذٍ فقط يمكنهم مناقشة الرقابة الدولية.

لم يكن هناك مخرج من ذلك الطريق المسدود؛ ففى أبريل ١٩٤٦ قام «ترومان» بتعيين «برنارد باروتش» الخبير المالى ومستشار الرؤساء، مندوباً أمريكياً فى لجنة الطاقة الذرية بالأمم المتحدة، وكان رأى «باروتش» أن اقتراح «أتشيسون ـ ليلنثال» قد تخطى

حدوده؛ لأنه لم ينطو على أية إشارة إلى الحق الروسى فى الڤيتو. وكان «باروتش» يهدف إلى ضمان حكم الأغلبية فى جميع المراحل، والذى كان معناه عدم استطاعة السوفييت استخدام حق الڤيتو فى استخدام القنبلة ضد أنفسهم، إذا تم اكتشاف أى انتهاكات للاتفاقية، وكذلك عدم استطاعتهم منع فرق التفتيش من حرية التجوال فى بلادهم. وكان من المستبعد تماما قبولهم لاقتراح «باروتش».

ومع ذلك، أصر «باروتش» على إلغاء حق الڤيتو، وكان يسانده فى ذلك «إيزنهاور» رئيس أركان الجيش، الذى أشار عليه بأن السبيل الوحيد لمنع وقوع حرب ذرية، هو التوصل إلى السيطرة الدولية على الطاقة الذرية، ولكنه أصر أيضاً على أن الأمن القومى يقتضى اختبار وسائل تلك الرقابة، والتثبت من دقتها، قبل أن تتخلى الولايات المتحدة عن احتكارها للقنبلة. لقد وضح «إيزنهاور» هدفه قائلا: «إذا أسرعنا بالموافقة على اتفاقية دولية لمحو كل الأسلحة الذرية.. فقد نجد أنفسنا فى موقف من فَـقَـدَ كل وسائل الردع، فى عالم لديه القدرة على شن الحرب إذا قررت إحدى القوى العظمى انتهاك الاتفاقية» ثم حذر من أن روسيا قد تتعمد عدم استخدام أسلحة ذرية، ثم تعمد إلى العدوان بأسلحة أخرى لا تقل عنها فاعلية.

كانت تلك هى المعضلة الأساسية التى اعترضت جهود الولايات المتحدة للتوصل ـ قبل فوات الأوان ـ إلى شكل ما للرقابة الدولية على الطاقة الذرية، وهى القضية التى فاقت أهميتها قضية حق الڤيتو أو التفتيش.

إن السؤال الذى أثاره «إيزنهاور» كان واضحاً ومباشراً: إذا تخلت الولايات المتحدة عن القنبلة الذرية.. كيف تتمكن من صدّ الجيش الأحمر؟. لم يكن هناك بديل لامتلاك أمريكا للقنبلة سوى بناء جيش أمريكى ضخم، أو موافقة روسيا على تسريح جيشها. وكلاهما أمران يصعب تحقيقهما فى ١٩٤٦. لقد قدم كلا الجانبين عدة تنازلات، إلاّ أنهما رفضا التراجع فى القضايا الجوهرية؛ فأصرت أمريكا على الاحتفاظ بالقنبلة إلى أن تتأكد من فعالية الرقابة الدولية، ورفضت روسيا التنازل عن حق الڤيتو.

وتبخر الأمل الوحيد فى التخلص من القنبلة، وقد كان أملاً ضعيفاً على أية حال فى ظل الظروف السياسية التى سادت فى ١٩٤٦. لقد رفضت أمريكا التخلى عن احتكارها للقنبلة، طالما احتفظ الجيش الأحمر بقوته وتماسكه، ورفضت روسيا تماماً تسريح جيشها طالما استمرت حيازة أمريكا للقنبلة. وفى فترة زمنية قصيرة نسبياً كانت روسيا ستنجح فى إنتاج قنبلة خاصة بها، وستنجح الولايات المتحدة فى تكوين جيش عامل ضخم. وهكذا، بدأ سباق التسلح يشق طريقه بسرعة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم؛ مما فرض تغيرات متميزة فى السياسة الخارجية الأمريكية، وفى العلاقات الدولية بصفة عامة. وحيث إن شعوب العالم تصاب بالذعر كلما وقعت أزمة ما، فلن يكون هناك إحساس بالأمن أو بفعالية الدفاع. وبعد اقتراح «باروتش» اتجهت السياسة الخارجية الأمريكية إلى البحث عن أسلوب فعال لاستخدام القنبلة من أجل تحقيق الأهداف الأمريكية عبر البحار، فقد سبق أن فشلت القنبلة بالفعل فى تحقيق الأهداف الأمريكية فى أوروبا الشرقية حينما رفض السوفييت الإذعان لمطالبها. إن مدى فاعلية التهديد باستخدام القنبلة فى البقاع الأخرى من العالم لم يكن قد اتضح بعد، وإن كانت الولايات المتحدة نجحت فى مواجهة وصد مطامع روسيا فى إيران وتركيا. وبانتهاء عام ١٩٤٦، كانت مناطق النفوذ فى أوروبا قد تحددت بمنتهى الوضوح، ولكنها لم تكن واضحة فى المناطق الأخرى من العالم. ربما سيتكرر ما حدث مع إيران وتركيا، بحيث تحدث مواجهة حول كل نقطة فى العالم، حتى يتم الاتفاق على كل الخطوط المحددة فى كل مكان. وفى تلك الأثناء، فإن الحرب الباردة كانت ستستمر تحت ظلال السحاب.

obeikandl.com